

معالم التفسير الإصلاحي عند البشير الإبراهيمي من خلال آثاره

THE MILESTONES OF THE REFORMIST INTERPRETATION OF
AL-BASHIR IBRAHIMI THROUGH ITS EFFECTS

الدكتور: جيلالي الحيرش Dr. Djilali LHIRECHE

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان
Univ. Boubakeur BELKAYED,
TLEMCEEN

djilali32@yahoo.com

Received:

Accepted: استلم:

قبل النشر:

ملخص:

هذه الدراسة هي محاولة للكشف عن أهم معالم التفسير عند الشيخ البشير الإبراهيمي بصفته رجلا مفسرا ومصلحا، استخدم التفسير الإصلاحي وسيلة للإصلاح في عهد الاستعمار، وقد اعتمد الباحث على كتاب آثار البشير الإبراهيمي مرجعا أساسا للانطلاق في البحث، معتمدا في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي، وقد جاءت الدراسة في مبحثين؛ تطرق في أولهما إلى بيان المعالم العامة المتعلقة بالتفسير وأصوله وقواعده، أما المبحث الثاني فبين فيه المعالم الخاصة بالتفسير الإصلاحي، ليخلص البحث بخاتمة عرض فيها نتائج الدراسة، وأهمها: أنّ التفسير الإصلاحي هو وسيلة إصلاحية تجديدية في التفسير ظهرت بوادرها بظهور الاستعمار، وتفشّي الضعف والانحطاط في الأمة الإسلامية، وقد كان من خصائص هذا النوع من التفسير الإملاء والمشافهة، وقد تجلّى للباحث اعتناء الإبراهيمي باللطائف والسّياق، وكذلك الجوانب المقاصدية للنصوص.

الكلمات المفتاحية: التفسير؛ الإصلاح؛ البشير الإبراهيمي؛ آثار.

Abstract:

This study is an attempt to reveal the most important features of interpretation when Sheikh Bashir Al-Ibrahimi as a man explained and reformed, The reformist interpretation was used as a means of reform in colonial times, The researcher has relied on the book of the effects of Al-Bashir Ibrahimi as a basic reference for starting the research, Based on the descriptive analytical approach, The study was presented in two papers: First, it addressed the general features of the interpretation, its principles and rules, The second section shows the features of the corrective interpretation, to conclude the research conclusion of the presentation of the results of the study, The most important of which is that the reformist interpretation is a reformist means of reform in the interpretation that emerged with the emergence of colonialism, the spread of weakness and degeneration in the Islamic Ummah, One of the characteristics of this type of interpretation is the spelling and ambiguity, The researcher was aware of Brahimi's treatment of the various aspects and context, as well as the aspects of the texts.

Key words : Interpretation;Refor; Bashir Al-Ibrahimi; Effects.



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، ولي الصالحين والمصلحين، وقاصم ظهر المفسدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، خير مبيّن للقرآن الكريم، وعلى الآل الطاهرين وعلى الصحابة والتابعين، أما بعد:

فبعد تفسير كتاب الله تعالى أنبل العلوم وأفضلها لشديده تعلّقه بكتاب الله تعالى، كما يعدّ التفسير عبر التاريخ أهم وسيلة للتربية والإصلاح وهذا منذ نزوله على سيّد الخلق حتّى عصرنا الحاضر؛ فما من مصلح إلّا كان القرآن مرجعه الذي يرجعه إليه، وركنه الركين الذي يلجأ إليه، وما من مربّ ناجح إلّا كان القرآن وتفسيره سرّ نجاحه لا ريب، ولما أدرك المسلمين عصرٌ اشتدّت فيه عليهم المضلات وتماأت عليهم الأمم وتداغت عليهم العصابات كما تداعى الأكلة على قصعتها؛ فضعف حال الأمة، ونحت الشعوب إلى الدّعة وسوء الأخلاق، قيض الله حينها من هذه الأمة رجالاً حملوا على عواتقهم راية الإصلاح والتجديد الهادف، وفتشوا ونقبوا في الحلول فاهتدوا إلى أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها؛ فرجعوا إلى كتاب الله فيسترونه ويستخرجون درره التي لا تنقضي وحلوله الصالحة لكل حال وزمن ومصر، وكان من هؤلاء الرجال الإمام البشير الإبراهيمي، الإمام المصلح لما أفسدته يد الاستعمار، فرغم أنه لم يكن للإمام سفر جمع فيه تفسيراً لكتاب الله تعالى من أوله إلى آخره إلّا أن هذا لا يمنع من وصفه بالمفسّر؛ فهذا هو منهج المصلحين الذين اهتموا بصناعة الأحرار عن تسفير الأسفار، وإن لم يصل إلينا إلّا نزر يسير من ذلك البحر المحيط الذي كان شفهيّاً، فإنّ اللائمة إنّما تقع على التلاميذ الذين لم يدوّنوا ذلك الملقى في دار الحديث بتلمسان وغيرها، ومن العجيب أنّ الأستاذ قد تنبّه إلى هذا الأمر ولكنّه فات تلامذته الذين كانوا يحضرون تلك المجالس فقد قال في كلمة له بين يدي تفسير صاحبه ابن باديس للمعوذتين: «ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح معانيها بالكلام، فذلك في حقيقته نوع قاصر من الإملاء، وإنّما ننعى على السامعين إهمالهم لكتابة ما يسمعون فتضيع عليهم الفوائد التي يلقيها الأستاذ وقد تكون قيّمة، كما تضيع في عصرنا هذه الخطب والمحاضرات المرتجلة التي لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها»⁽¹⁾ ثمّ يعتب -رحمه الله- على جلساء الشيخ محمد عبده لعدم تدوينهم أمالي شيخهم في التفسير، وأنّه قد ضاع منه الكثير إلّا ما تمكّن الشيخ محمد رشيد رضا من جمعه⁽²⁾ ورغم هذا فإنه لم يصلنا إلّا القليل من أماليه -رحمه الله- في التفسير.

(1) آثار البشير الإبراهيمي 1/ 341.

(2) ينظر: آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 343.

هذا الأمر الذي دعاني بشدة إلى الخوض في غمار هذا العمل البحثي محاولا التعرّيج على ما وصل إلينا من آثار الإمام من مواضع فسّر فيها كتاب الله تعالى، في محاولة لاستشفاف أهمّ معالم التفسير عند الإمام الإبراهيمي، لأطرح الإشكالية الآتية:

ما هي أهم معالم التفسير الإصلاحي عند الإمام الإبراهيمي؟ وما هي أهم الوسائل التي اعتمدها الشيخ فيبانه لكتاب الله تعالى؟ وما هو منهج الإمام في التفسير؟

وأحسب أنه -وفي حدود علمي ومقدرتي المتواضعة- لم يقوم بهذا العمل أحد قبلي، وعمدتي في ذلك ومرجعي هو ما جمعه نجل الإمام الشيخ أحمد طالب الإبراهيمي في كتابه الموسوم (آثار البشير الإبراهيمي).

وللإجابة على هذه التساؤلات؛ فقد اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي كونه مناسباً لموضع الدراسة. وقد راعيت في ذلك خطة رأيتها مناسبة حيث استهللت الدراسة بمقدمة عرضت فيها الموضوع، ثم توطئة ذكرت فيها مكانة القرآن عند البشير الإبراهيمي ومبشرين خصّصت أولهما للمعالم العامة للإمام المتعلقة بالتفسير وأصوله وقواعده، وأما ثانيهما فجعلته مخصصاً للمعالم الجزئية، الخاصة بالتفسير الإصلاحي، ثم ختمت الدراسة بخاتمة عرضت فيها ما أمكنني الوصول إليه من نتائج.

والله وليّ التوفيق والعون والسداد والحمد لله رب العالمين.

توطئة: مكانة القرآن عند البشير الإبراهيمي.

إنّ الفارق بين مفسّر من أهل الضلال والهوى، ومفسّر من أهل السنّة والجماعة إنّما هو ذلك القدر من الرجوع إلى القرآن والسنّة الذي يعتمد به الطرفان خلال معالجتهما لقضية من قضايا التفسير، ويظهر هذا القدر جلياً بيّناً - خاصة- عند التنازع، وقد كان البشير الإبراهيمي حامل لواء الاتجاه الأول في عصره، وقد أكّد - رحمه الله - على أنّ الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم من شأنه أن يجمع المختلفين، وأن يؤلّف بين المتخاصمين فجاء في مجلّة المنهل من كلام الإمام في بيانه لوظيفة علماء الدّين: «وكان العلماء يردّون كلّ ما اختلفوا فيه من كلّ شيء، إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا إلى قول فلان، ورأي فلان، فإذا هم متّفقون على الحق الذي لا يتعدد. ولقد أنكر مالك على ابن مهدي - وهو قرينه في العلم والإمامة - عزمه على الإحرام من المسجد النبوي، فقال ابن مهدي: إنّما هي بضعة أميال أزيدها، فقال مالك: أو ما قرأت قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63] وأية فتنة أعظم من أن تسوّل لك نفسك أنك جئت بأكمل مما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو

كلامًا هذا معناه ... ثم تلا قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3] ، وقال كلمته الجامعة التي كأن عليها لألاء الوحي، وهي قوله: «فما لم يكن يومئذ دينًا فليس اليوم بدين»⁽¹⁾»⁽²⁾

كما يعدّ القرآن الكريم عند الإمام مصدرا لا ينضب وبحرا لا ساحل له من العجائب والأسرار والكنوز والحلول لما استجدّ من المحدثات، شريطة أن يكون الصّياد بارعا وأن يكون الوارد لهذا المصدر محسناً للورود ولا يكون كما قال الشّاعر:

أوردها سعد وهو مشتمل... ما هكذا يا سعد تورّد الإبل⁽³⁾

مع اشتراط شرط آخر وهو أن يكون الشّارب عارفا بقيمة ما يشرب، ونقصد بذلك المتلقّي للتفسير سواء بطريق القراءة أو السّمع، وإلى الشّروط الأولى والآخر يلمّح الإمام الإبراهيمي خلال حديثه في ذكرى وفاة الإمام ابن باديس، وسرده لإحدى ذكرياته معه إذ حضر الشيخ ابن باديس لدرس صاحبه في التفسير فيقول: «وأذكر أنه صادف في ليلة من تلك الليالي الزاهرة بحياته درسًا في دار الحديث من تلمسان في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس:87]، فقال لي - رحمه الله - بعد تمام الدرس ما معناه: "إن هذا الدرس وحده كاف لإحياء أمة مستعدة. ولقد زادني هذا الدرس إيمانًا بقوله - صلى الله عليه وسلم - في القرآن: «لا تنقضي عجائبه»⁽⁴⁾»⁽⁵⁾.

فالآية الكريمة ظاهرها سرد لقصة موسى مع قومه، والمفسّر غير المتلمّس لروح الآية يفترض بأن يفسّرها تفسيرًا ظاهريًا غير مكثّر لدلالاتها العميقة، وما يمكن أن يستخلص منها من فوائد وحلول واقعية، ومقاصد جليلة، ولا بد أن الإمام ابن باديس لاحظ على أخيه براعة في استنباط الأحكام وفطنة في تنزيل ذلك على واقع الناس فقال ما قال، وهذا دلالة على الشرط الأول الذي ذكرنا.

(1) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، 1/ 49.

(2) آثار البشير الإبراهيمي، 4/ 109، نقلا عن مجلة «المنهل».

(3) البيت لمالك ابن زيد مناة، ينظر: المعجم المفصل في اللغة العربية، 11/ 285.

(4) الجامع الصحيح سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، رقم: (2906)، ضعفه الألباني.

(5) آثار البشير الإبراهيمي، 2/ 195.

ويعتبر البشير الإبراهيمي القرآن الكريم مستندا قويا، وظهيرا لا يستغنى عنه في دعم قضيته العادلة؛ فنجد الإمام يرجع إليه تارة مستشهدا، وتارة مقتبسا في مختلف القضايا والنقاشات التي يواجه فيها خصومه سواء من أذئاب المستدمر الفرنسي، أو بعض زعماء الطرقية الذين أعلنوا عداؤهم لجمعية العلماء المسلمين، ومن ذلك - مثلا - خلال حديثه عن تأسيس الجمعية وتبعات ذلك وآثاره، ومن آثاره محاولة أتباع الطريقة العلوية تأسيس جمعية طرقية مناوئة لجمعية العلماء في محاولة لإفشالها، وما انجرَّ عن ذلك من رفض الأمة لهذه الجمعية المناوئة وتخلي الناس عن دعمها، فيقتبس من قوله جلَّ وعلا: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17]⁽¹⁾

يدعو البشير الإبراهيمي إلى حتمية تفعيل القرآن الكريم في حياتنا والاعتماد عليه في حلّ قضايانا، وإنَّ أهمّ قضية أفضّت مضجع الشيخ هي قضية الإصلاح التي من أجلها تأسست الجمعية، وهو بذلك يعتبر القرآن الكريم أهم ركن يلجأ إليه في معالجة هذه القضية وهو يوصي بذلك صراحة وينادي به في كل ناد؛ ومن ذلك دعوة في خطابه خلال حفلة من الحفلات يقول: «إن العالم في عذاب، وعندكم كنز الرحمة؛ وإن العالم في احتراب، وعندكم منبع السلم، وإن العالم في غمة من الشك، وعندكم مشرق اليقين. فهل يحمل بكم أن تعطلوه فلا تنفعوا به ولا تنفعوا؟ طبّقوا على أنفسكم جزئية واحدة من إصلاحاته كالزكاة، واطهروا بها للعالم على صورتها العملية الكاملة، وحقيقتها العلمية العليا. ثم قفوا بين الصفين، لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين. وأشربوا نفوسهم ما أشربت نفوسكم من معنى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]. ومن معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، وأنا الضمين لكم أنهما يتحاجزان ويتساحمان في طرفة عين. إن دينكم دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح وكما أوجب عليكم الإصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس، أحيوا قرآنكم تحيوا به، حقّقوه بتحقيق وجودكم به. أفيضوا من أسراركم على سرائركم ومن آدابه على نفوسكم ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء»⁽²⁾.

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 189.

(2) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 365.

المبحث الأول: معالم عمّامة في التفسير وأصوله قواعده عند البشير الإبراهيمي

يُجمل الإمام الإبراهيمي مصادر التفسير السلفي الصحيح في عبارة واحدة حيث يقول -رحمه الله- في سياق حديثه عن التفسير ومناهجه في القلم والحديث: «أما المعنى الصحيح لكتاب الله فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون وسنن الله فيه ومن أحكام الاجتماع الإنساني، ومن تصارييف الزمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية»⁽¹⁾ ولعلنا من خلال هذه العبارة الموجزة يتبين لنا أهم المعالم التي سلكها الإمام في التفسير، وفي هذا المبحث سنعرّج على تفاصيل هذه المعالم المجلّة من خلال عناصره.

أولاً: الهدف الأسمى من البحث في القرآن الكريم هو إيجاد الحلول.

يؤكد البشير الإبراهيمي -رحمه الله- على ضرورة أن يكون القرآن الكريم ومدارسته وتفسيره وبذل الوسع فيه فيما يعود بالفائدة على الناس وإن يكون ثمرة ذلك هو مجموعة حلول لمجموع المشكلات التي تواجه المجتمعات لا مجرد جهد عبثي لا ترجى منه فائدة إن لم نقل زيادة في إغراق الناس في مشكلات أخرى وتوليد أزمات هم في غنى عنها؛ ولذلك وجدنا الشيخ خلال حديثه عن سبب تفرّق المسلمين في الدّين يتوجّه باللائمة على أمثال الرّازي كونه شغل فكره المستنير، وسعة ذكائه في تفسيره في مجرد قضايا كلامية لم ترج منها فائدة ولا ثمر، ويضرب لذلك مثلاً في تفسير الرّازي لقوله جلّ وعلا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18] على أنّ أولي العلم في الآية هم علماء الأصول.

ثانياً: تفسير القرآن بالقرآن الكريم والسنة الشريفة.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسّر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان فقد بُسّط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له»⁽²⁾، فالقرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً قاعدة ركّز عليها الإمام الإبراهيمي وعمل بمقتضاها؛ ففي كثير من المواضع تجده يتعرّض إلى قضية من القضايا، أو لفظ من الألفاظ لا يغادره إلى ما بعده حتى يستقصي جميع ما ورد من شبيهه في مواضع أخرى من القرآن محاولاً المقارنة بينها، ومن ذلك عند تفسيره لمصطلح (الإنذار) يقول رحمه الله: «

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 343.

(2) أصول التفسير، ص 39.

ويستخلص من معنى هذه الجملة أن القرآن أنزل للإنذار، وتشهد لذلك آيات قرآنية كثيرة، أصرحها في المراد قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ...﴾ [الأنعام: 19] وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92]، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: 2]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ، وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: 97]، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: 6]، ﴿لِتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: 70]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ [الشورى: 7]، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: 52]: هو نتيجة لما قبله لأن شأن الإنذار أنه يدعو إلى التأمل وإعمال الفكر، والتأمل يستتبع الفهم، أي وليعلموا، بعد إنذار القرآن إياهم عواقب الجهل بالله والشرك به وبعد تأتهم وتديبرهم في دلائل القرآن وحججه، علماً يقينياً ما لم يكونوا يعلمونه، أو كانوا يعلمونه علماً مشوباً بالشكوك والأوهام، وهو أن الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وسخر الشمس والقمر دائبين، وسخر الليل والنهار، إله واحد لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، ولا يشاركه مخلوق في شيء من الخلق والتدبير⁽¹⁾.

ويصرح الإمام بكون القرآن الكريم والسنة المطهرة مصدران أساسيان للتفسير الصحيح وذلك في سياق تقديمه لمقال خاص بتفسير المعوذتين للإمام ابن باديس⁽²⁾

ثالثاً: العود إلى عوائد العرب في التفسير

إن نزول القرآن الكريم بلغة العرب، واستعماله للأساليب نفسها في خطابها؛ أمر يستلزم أن تكون عمدة المفسر في تفسيره هو هذه اللغة التي نزل القرآن الكريم بها، يقول الإمام الشاطبي: «فإن قلنا: إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي وإنه لا عجمة فيه، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجهه والخاص في وجهه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالكلام ينبيأ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 401.

(2) ينظر : آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 341.

واحد، وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها فإذا كان كذلك، فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب، فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب، كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم، لاختلاف الأوضاع والأساليب»⁽¹⁾ وقد اعتنى الإمام الإبراهيمي بهذا الأمر أيما اهتمام، ومن ذلك تفسيره للفظ (بلاغ) من قوله جلّ وعلا: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: 52] يقول رحمه الله: «الاسم دليل على المسمى، واننا كثيراً ما وجدنا مطابقات بين الاسم والمسمى، وذلك مطرد حتى في تسمية الأولاد، وقد عرف العرب هذا، واستشهد بتسمية عبد المطلب لنبيّنا - عليه السلام -، وما قيل له في ذلك وبما أجاب. والقصد من هذا الاستدلال أن المسمى للشيء يلاحظ معنى ذلك الاسم، وإننا نجد في القرآن أسماء الله تعالى من هذا القبيل، كما نجد ذلك في أسماء النبي - صلى الله عليه وسلم - التي في القرآن والتي في حديث: «لي خمسة أسماء...»⁽²⁾ الخ الحديث، ومن تفقّه في أسماء القرآن كان له الحظ العلمي والعملية، ذكرني هذا قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ...﴾، فقد سماه الله كتاباً، وقرآنًا، ورفقًا، وذكرًا، وبلاغًا، ونورًا»⁽³⁾.

رابعاً: إنكاره للتفسير السطحي

وأقصد بالتفسير السطحي؛ تفسير القضايا القرآنية تفسيراً دنيوياً في منأى عن روح الآيات وبعدها المقاصدي، فقد أنكر الإبراهيمي على هذه النظرة القاصرة البعيدة غير المراعية للمعاني الجلية التي تأبها العقول السليمة المستصحبة لأساليب القرآن الكريم في الخطاب، ومن ذلك - مثلاً - قوله في بيان الحكمة من الصّوم وأنه ليس مجرد معاملة تجارية بين الخالق والمخلوق فقال: «والنفوس الراغبة تطمع في الله طمعاً تقيسه بمقياس الطمع في المخلوق، فتلحف في السؤال ثم تضجر، وتعبده تملقاً لا تعلّقاً، وكأنها تعطيه لتأخذ منه، وكأن العبادة عملية تجارية بين طرفين، مبنى أمرها على المصالح والمعاوضات، ومن غريب أمر هذه النفوس أنها تستأنس لهذا المعنى بعبارات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ [الصف: 10]، وقوله: ﴿فَمَا رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ﴾ [البقرة: 16]، وقوله: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم

(1) الموافقات، 104/2.

(2) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: (3532)، وقام الحديث: جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ وَأَنَا الْخَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ»

(3) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 389، نقلاً عن: جريدة «البصائر».

به» [التوبة: 111]، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [التوبة: 111]، ولم تدِرْ أن هذه أمثال ضربها الذي لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، بالمحسّنات المدركة لجميع الناس، ليستدرجهم منها إلى المعقولات العليا التي لا يعقلها إلا العالمون، ما مسح العبادات عندنا وصيرها عادمة التأثير، إلا تفسيرها بمعاني الدنيا، وتفصيلها على مقاييسها»⁽¹⁾

خامساً: بيان تناسب الآي من مهمّات المفسّر الحذق

إنّ القرآن الكريم وحدة واحدة وترتيب آياته أمر توقيفي بإجماع، ولذلك فإنّ لهذا الترتيب أغراض ومقاصد لا ينبغي أن تُغفل، يقول الزركشي: «واعلم أن المناسبة علم شريف تحزّر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول ... ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها»⁽²⁾ وقد ورد في آثار الإبراهيمي اعتناء بهذا الغرض ومن ذلك قوله: «وهذه السورة التي ختمت بهذه الآية بُدِئت بقوله تعالى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1] وإن استهلال سورة نسبت إلى إبراهيم واختتامها بالتنويه بكتاب الإسلام لإشعارنا بالصلة الوثيقة بين دين إبراهيم ودين الحق الذي جاء هذا الكتاب لبنيانه، وبالأصالة العريقة التي انفرد بها هذا الدين الحنيف، تلك الأصالة التي قرّرتها آيات من القرآن في توحيد الله وفي تقرير سننه في الخلق والتكوين والجزاء وسرائر البشر»⁽³⁾ فانظر كيف ربط - رحمه الله تعالى - بداية السورة بآخرها من جهة، كما ربط بينها وبين اسم السورة من جهة أخرى، وجعل لذلك دلالات أثبت بها العلاقة بين رسالة الخليل عليه السلام ورسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم.

سادساً: دلالة أسامي السور

ومذهب البشير الإبراهيمي في أسماء السور أنّها أمر توقيفي، ولذلك فإنّ هذه التوقيفية لها أثر في التفسير، وينبغي لمن أراد أن يفسّر سورة أن يعتني باسم السورة ودلالته، وهو أمر يعين المفسّر على معرفة مراد الله من كلامه، وسند مهمّ لإدراك مقاصد الآيات؛ فجاء في سياق تفسيره للآيات الأخيرة من سورة إبراهيم ما يلي: «ولكن تسمية السور القرآنية

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 4 / 195.

(2) البرهان في علوم القرآن، 1 / 35.

(3) آثار البشير الإبراهيمي، 1 / 392.

ليست بالهوى والتشهي، والمناسبات الفنية، والاعتبارات الدوقية، والملاحظات الاصطلاحية، وإنما هي توقيف من رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، فحسبنا فيها الاتباع. وهذه السورة التي ختمت بهذه الآية بُدِئت بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1] وإن استهلال سورة نسبت إلى إبراهيم واحتتامها بالتبويه بكتاب الإسلام لإشعارنا بالصلة الوثيقة بين دين إبراهيم ودين الحق الذي جاء هذا الكتاب لبيانه، وبالأصالة العريقة التي انفرد بها هذا الدين الحنيف، تلك الأصالة التي قررتها آيات من القرآن في توحيد الله وفي تقرير سننه في الخلق والتكوين والجزاء وسرائر البشر، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ [النجم: 36-41] وقال تعالى، بعد أن ذكر طائفة من شؤونه في خلقه: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 18، 19].⁽¹⁾

وتحدر الإشارة إلى أن بعض سور القرآن ثبت بالآثار الصحيحة تسميتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن الجزم بأن ذلك حاصل في جميع سور القرآن الكريم، ضف إلى ذلك أن بعض السور لها أكثر من اسم، قد يكون بعض تلك الأسماء من غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذهب السيوطي في الإتيان إلى أسماء جميع السور ورد عنه صلى الله عليه وسلم فقال في ذلك: «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك»⁽²⁾ وأما الزركشي ففي عبارته ما يدل على عدم يقينه من هذه الأمر فجاء في البرهان: «وينبغي البحث عن تعداد الأسماء هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد»⁽³⁾

سابعاً: مراعاة السياق

يعتبر السياق السابق واللاحق للألفاظ والعبارات من أهم القواعد الأساسية التي ينبغي أن يراعيها كل مفسر انبرى لكتاب الله تعالى، ولا يمكن بأي حال أن نفسر آية أو لفظة من كتاب الله تعالى مجردة عن مكانها الذي وردت فيه، ومن

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 392.

(2) الإتيان في علوم القرآن، 1/ 186.

(3) البرهان في علوم القرآن، 1/ 270.

قبيل مراعاة السياق — أيضاً — مراعاة المقدّم من الألفاظ والمؤخّر منها فالتقديم والتأخير لهما دلالاتهما وأثرهما في التفسير كذلك، وقد راعى الإمام الإبراهيمي هذه القاعدة، ومن ذلك على سبيل المثال قوله: «فالعلم وحده لا يفيد إذا لم تصحبه في كل خطوة تربية نفسية على شمائل العرب وهمهم، وبطولتهم، ووفائهم، وصدقهم في القول، والعمل والحال، وتضحيتهم، وإبائهم، وإيثارهم، وكرمهم، وشجاعتهم، وأحسابهم، وقد قال تعالى في وظيفة الرسول: ﴿وَيُزَكِّكُمُ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151]؛ فقدّم التزكية التي هي التربية على تعليم الكتابة والعلم» ومن ذلك — أيضاً — خلال تفسيره لأواخر سورة إبراهيم قال: «والإنذار سابق على التبشير طبعاً، لأنه يتعلق بالكافرين والمشركين، ويتوجه به إليهم، فإذا زعزع الإنذار كفرهم وشركهم، وآمنوا بالله، واتبعوا رسله، وعملوا الصالحات، جاء التبشير. قال تعالى: ﴿... أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ [يونس: 2] وقدّم التبشير على الإنذار في اللفظ أحياناً، لأنه النتيجة والمقصود والثمره»⁽¹⁾

فقد استخلص من هذا التقديم والتأخير بين اللفظتين في الكتاب وجوب تحصيل ذلك في الواقع، وأنّ الترتيب الوارد في القرآن ليس ترتيباً عبثياً، بل لذلك دلالات وفوائد.

المبحث الثاني: معالم جزئية من ميزات التفسير الإصلاحي عند الإمام.

بيّن الإمام الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير على وفقها المصلحون الذين يرومون العود بالناس إلى القرآن فيقول رحمه الله — ملخصاً ذلك المنهج النبيل: «وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمة إلى القرآن، وصف القرآن، وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبره وفهمه، فمن التسديد في الرأي والمقاربة في العمل أن ترشد الأمة الإسلامية إلى معرفة ما ضيّعت من خير وما خسرت من هداية، بتضييعها للقرآن وإنما تعرف ذلك ويبلغ مكامن الوجدان من نفوسها، من وصفه والإشادة بشأته والتنويه بجلاله وخطره والتنبيه على ما يحتوي عليه من العلوم الكثيرة بألفاظ قليلة، وتقريب ما ينطوي عليه من المرامي المفيدة، بالكلمات القريبة، وشرح ما فيه من الحقائق المتفرقة بالجمل الجامعة، فإن ذلك يكون أدعى لرجوع النفوس الجاحدة عنه إليه وأعون على قيامها إلى حماه والاستظلال بظله والاستمسك بحبله.

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 400.

وليت شعري، أي بيان يضطلع بهذا؟ إن وصف القرآن وأساليب التشويق إلى القرآن لا توجد على أكملها في غير القرآن⁽¹⁾

وفي هذا المبحث سنحاول بيان هذا المنهج عند الإمام من خلال هذه النماذج والأمثلة التطبيقية.

أولاً: اعتناؤه بالآيات الجوامع

يركز الإمام على الآيات قليلة الألفاظ ذات المعنى الواسع، وإن كان القرآن الكريم كلّ آية من هذا القبيل إلا أن بعضه أوسع من بعض؛ فيختار الإمام من ذلك ما له دلالة أوسع فيعكف على تفسيره والاستنباط منه بما لم يسبقه إليه أحد من قبل من المعاني واللطائف من غير تكلف أو مناقضة لأصل أو مصادمة لظاهر، فمن ذلك:

تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]؛ فيقول - رحمه الله - : هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو بالظلم أو بالأنانية أو بالقسوة، وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مردداً في الجامع الأخضر خمسين سنة آخرها أمس.⁽²⁾

وفي موضع آخر حيث يريد فيه بيان أن القرآن الكريم هو منشأ سعادة البشر المنشود، فيرى - رحمه الله - أن في قوله جل وعلا: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155] وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] أن الآيتين تصلحان لأن تكونا عنواناً مناسباً للقرآن الكريم لتكون تعريفاً جامعاً لوظائفه.⁽³⁾

ثانياً: الاستشهاد بالقرآن في دفع الملمات

يستعين الإمام الإبراهيمي بالقرآن الكريم في كثير من المناسبات، وخاصة تلك المناسبات الأليمة التي تلمّ بالأمة وما يحل بها من نكبات وأزمات وكوارث، ففي الكارثة التي حلت بأهالي تبسة والمتمثلة في الفيضانات والسيول الجارفة التي تكبد السكّان خلالها خسائر بشرية ومالية، يوجّه الإمام نداء استغاثة إلى أفراد الأمة لمساعدة إخوانهم التبسيين في خطاب

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 323.

(2) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 365.

(3) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 321.

ينم عن شعور الرجل بالآلام شعبه وتآلمه لمصابهم، وليقينه الجازم بقوة القرآن الكريم في تحريك المشاعر ومكانة كلمات الله تعالى من قلوب الجزائريين، هاهو يلجأ إلى القرآن وآياته المعبرة عن المقام فيقول: « أيتها الأمة الكريمة، إن إسعاف هؤلاء المنكوبين أمر أكيد يقتضيه منا الدين وحقوق المواطن على مواطنه فلا يليق بأمة تحترم نفسها وتحرص على أن يحترمها غيرها أن تغض الطرف عن قيامها بالواجب في مثل هذه المآسي التي يلين لها الجماد.

وما دمت، أيتها الأمة مؤمنة بالقرآن الكريم فتذكرى قول الله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: 20] و﴿مَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: 20]»⁽¹⁾.

ثالثاً: التفسير العملي

ينبذ الإمام فكرة كون القرآن مجرد نصوص لا تعلق لها بواقع الناس، وتفسيره مجرد شروحات لغوية لا يُنتظر منها فائدة عملية من شأنها أن تغير السلوكات، بل القرآن وتفسيره عند الإبراهيمي هو حركة وفاعلية، والقصد من القرآن هو الهداية، وتفسيره لا بد أن يحقق هذا المقصد العظيم الذي من أجله نزل، فنجد أنه يفسر ظاهرة الابتعاث التي تبنتها الجمعية بأنها تفسير عملي لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]⁽²⁾.

رابعاً: الإعجاز القرآني

إن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة التي أيد بها دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا يقتضي أن يكون الإعجاز في كل جزئية من جزئياته، وفي كل سورة من سورته، وذلك لأن التحدي الذي تحدى الله به الإنسان والجن على أن يأتوا بمثله واقع على كل آية منه، ولقد تنافس المفسرون واللغويون وكل مهتم بالدراسات القرآنية على اكتشاف ألوان الإعجاز الواردة في هذه الآيات والسور، وقد تزايد هذا الاهتمام خاصة في العصر الحديث الماكب لحركة الاشتراق الطاعنة في القرآن، وكذلك حركة الاستعمار الفكري التي حاولت إبعاد المسلمين عن القرآن حتى تأثر بذلك الطبقة المدعية للثقافة والتي كان من شأنها إيجاد الحلول في غير القرآن؛ فانبهر للدفاع عن القرآن الكريم، وإرجاع الناس إليه رجال

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 2 / 188.

(2) آثار البشير الإبراهيمي، 4 / 327.

مصلحون من أمثال الإمام الإبراهيمي معتمدين في ذلك على خاصية الإعجاز التي تميز بها القرآن الكريم، ومن ذلك نرصد هذين المثالين التاليين:

المثال الأول: يقول الشيخ -رحمه الله-: «إننا نعد من إعجاز القرآن في البلاغة ما هو شائع في جميع آياته من الدقة المتناهية في تحديد المعاني وتصوير الحقائق وتنزيل الألفاظ في مراتبها وتلوين الأساليب والتزاج بين الصفتين أو الصفات حتى كأنهما صفة واحدة كالقوي الأمين والغني الحميد، والحفيظ العليم، والعليم الحكيم. فليقصر الواصفون وليدعوا القرآن يصف نفسه بتلك الدقة العجيبة وذلك التصوير الرائع. وليسلك الدعاة سبيلهم إلى نفوس الناس بهذه الأوصاف الرائعة من هذه الآيات الجامعة، فإن ذلك أدعى إلى التأثير والتأثر وأبلغ في باب التشويق من كل تبويب في الكلام وتعبير وتزويق. أين يقع كل ما وصفه به البشر من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، وما في هذه الآية من جمع أصول الإصلاح التي جاء بها القرآن مرتبة في الذكر ترتيبها في الوجود، وأين يقع كل ذلك من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: 15]؟ اللهم لا⁽¹⁾.

المثال الثاني: يقول الشيخ -رحمه الله-: «فليتدبر التالي هذه الأمثلة من الآيات القرآنية: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153]، ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15]، ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 20]، ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ﴾ [يس: 21]، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحاثية: 18]، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ [يوسف: 38] ويا للعجب من بيان القرآن وبيّناته وإعجازه بفنون إيجازه. إن الاتباع ضرب من قَمُو أثر الغير وترسم خطاه والانقياد له وجعل الهوى تبعًا للهوى مع اطمئنان بالمشاركة في النتيجة خيرًا كانت أو شرًا. وفي معناه من المهجنة أنه ينافي الاستقلال الفكري في الفكريات والذاتي في الذاتيات، فتجد القرآن يدفع عنك أثر هذه المهجنة العارضة فيأمرك بالتدبر واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة في وظائفها الفطرية قبل أن يأمرك

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 324.

بالاتباع، حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما فيه حق وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالاتباع فإنما ذاك فيما يتعالى على فكرك إدراكه أو يصعب عليك تمييزه أو يخاف فيه غلبة الأهواء عليك»⁽¹⁾.

فالملاحظ من خلال المثال أنّ الإعجاز الذي تبتّاه الإمام هو الإعجاز البياني الذي هو عمدة أنواع الإعجاز وأصلها.

خامساً: الصلة بين القرآن الكريم والسنن الإلهية.

اهتمّ النَّاس منذ القدم بمعرفة السنن الإلهية في محاولة دائبة لاكتشاف نواميس هذا الكون وأهمّ القواعد المطردة التي يسير على وفقها هذا النظام الدقيق، وذلك لما علم الأكياس أنّ فقه هذه السنن السّير على وفقها هو سرّ النجاح، وأنّ سبب بقاء الأمم والحضارات وزوالها منوط بموافقة السنن ومخالفتها، وإنّ لمعرفة السنن طرقاً وأساليب متعددة منها ما هو بطريق المقدمات الاجتهادية التي يوفق الله تعالى من شاء من عباد لا يستتاجها، ومنها ما هو بطريق النصّ؛ أعني بذلك كتاب الله تعالى أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلّم، وقد دأب كثير من المفسّرين المعاصرين على العناية ببيان هذه السنن واستنباطها من كتاب الله تعالى⁽²⁾؛ فالشيخ محمد رشيد رضا يدعو في المنار إلى بذل الوسع في هذه القضية بل وجعل منها وجوباً كفائياً ينبري له من كل أمة علم يقوم باستجلاء هذه السنن للناس لإرشادهم إلى الاعتبار منها والاهتداء على وفقها⁽³⁾؛ ولم يفت هذا الأمر على الإمام الإبراهيمي؛ فنجد - رحمه الله - في سياق حديثه عن بني إسرائيل وموقفهم من أنبياء الله ورسله وعنادهم وجرأهم على الله ورسله وتحريفهم للكتب يقول: «ويكفيها فرقاً بين الاستعداد والاستعداد أنّ بني إسرائيل قالوا لأعظم رسلهم، بعد أن قادهم إلى العزّ، وأنقذهم من الاستعباد والهوان، وبعد أن رأوا الآيات، واثالث عليهم النعم الإلهية على يديه: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24] واتخذوا في غيبته عجلاً جسداً له خوار، ولم يكفهم ذلك، بل ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: 88]، ولم يفارقهم الحنين إلى الوثنية، فقالوا، عندما رأوا ما يذكّرهم بها: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]، ثم خلقوه في دينه بعد موته أسوأ خلافة، فبدّلوا وغيروا، وحرّفوا الكلام عن مواضعه ونسوا حظاً مما

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 322.

(2) ينظر: السنن الإلهية في الامم والأفراد والجماعات ص 15.

(3) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، 4/ 114.

دُكِّروا به حتى ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وتَأَذَّنَ لِيَبْعَثَنَ عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يَسُومُهُمْ سوءَ العذاب، كما هو مشاهد بالعيان في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، وكأنَّ تاريخ الإنسانية عَيِيَّ بهم، فهم يترددون على لَهَوَاتِهِ تَرْدُّدُ اللَّقْمَةِ غَيْرِ السَّائِغَةِ إلى يوم القيامة» ثم قال بعد ذلك: «ومن جار على حقائق الله جارت عليه حقائق الوجود»⁽¹⁾.

ويذكر في موضع آخر سبب العقوبات التي حلَّتْ ببني إسرائيل، ومن أهمَّها عقوبة التَّيِّه التي عوقبوا بها لجنهم وتولَّيهم عن الجهاد ورفضهم لدخول الأرض المقدَّسة وعدم ثقتهم في موعود الله ورسوله بالفتح، فيقول: «ما كان يوم بدر إلا يومًا من أيام الله في الإسلام- إذن، وهل يحسن التذكير إلا بأيام الله؟ ولقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5] ذكر موسى بني إسرائيل بأيام الله، وذكرهم بآلائه عليهم، ولما لم ينفعهم التذكير، وخالفوا أوامر الله وكثيرًا ما قتلوا أنبياءهم بغير حق، حقَّتْ عليهم كلمة الله، وحقَّ بهم العذاب وهم لا يشعرون، فكان التَّيِّه الذي ظلُّوا فيه معذبين أربعين سنة، كانت كافية لأن تنهض جيلاً من الشباب عزيزًا، شديد المراس، يأبى الضيم، ولا يرضى المهانة، وكافية لأن تذهب جيلاً من العجزة وشيوخ الهمم الأذلاء الذين درجوا في ساحات الذل، وشبوا وشابوا تحت كلال الاستعباد والسخرة المقيتة، وتلك حكمة الله في تذكير الأمم بأيام الله، لتتعضَّ، وترجع إلى الله، وتندرع بالعبير والمثالات، وحسن الاقتداء»⁽²⁾.

فقد وظَّفَ رحمه الله الآية في بيان هذه السَّنة الإلهية في خلقه في إشارة إلى الأيام دول بين الناس، وإنَّ السَّنَنَ لا يمكن أن تتبدَّلَ؛ فما حصل لقوم سابقين بسبب من الأسباب يحصل لمن بعدهم إذا هم اقتفوا آثارهم فيه.

ويستشهد في خطبة ألقاها بمناسبة فتح مسجد الحنايا ومدرستها بتلمسان بالقرآن الكريم رابطًا ذلك بسنة الله في الخلق والتكوين؛ فالذي قدر على خلق العظام وهي رميم قادر على إحياء القلوب والشعوب الكفيلة بالتحدي ومواجهة أعتا التحديات فقال في ذلك: «إنني كلما استعرضت حال هذه الأمة في فكري، أو عرضت نفسها على عيني قصداً في المحافل، أو عفواً في المجالس والأسواق- تلوح لخطاري آية من كتاب الله تنطق بسننه المطردة في الأمم والقرون، وقد لاح لي عندما اعترضتني اليوم هذه الجموع الحاشدة، بل هذه الوفود الراشدة، في أقصى القرية- آية هي من دلائل قدرة الله على

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 1/ 393.

(2) آثار البشير الإبراهيمي، 2/ 298.

البعث الأخير، ومن الحجج الدامغة على منكره ولكنها- مع ذلك- قريبة الخطور في أذهان المتفائلين مثلي بالبعث الأول في هذه الحياة الدنيا.

تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78] لاحت لي آية البعث من القرآن عندما لاحت لي آية الانبعاث منكم، فأجلت بصيرتي في الأولى، عندما أجلت بصري في الثانية، فما زادت الثانية الأولى إلّا تمكينًا وتثبيتًا يصرف ذهني عن التدبر فيهما، والاعتبار بهما، والإيمان بحقيقتهما- هذه المناظر الخالبة للعقول، الفاتنة للأعين، ولا هذه الأصوات المتصاعدة بالتكبير والتهليل، ولا تلك المتعالية من حناجر النساء بالزردة والتأهيل⁽¹⁾.

سادساً: التفسير المقاصدي

يعتبر النظر في مقاصد القرآن وإدراك أسرار الأحكام القرآنية من أهمّ ميزات التفسير الإصلاحي، والنظر إلى المقاصد -في رأيي الخاص- هي من صميم صنعة المفسّر الحاذق، والمفسّر في مقام الإصلاح ينظر إلى الأبعاد الروحية في مختلف القضايا القرآنية؛ فالقصة القرآنية مثلاً يأتي عليها المفسّر التقليدي فيشرحها ويبيّن ألفاظها وعباراتها اللغوية، أمّا المقاصدي فينظر إلى روح القصة وسبب إيرادها، واستخلاص العبر منها، مع ربط ذلك بواقع الناس في عصره، وينظر المفسّر التقليدي إلى الحروف المتقطعة، فيكتفي بـ (الله أعلم بمرادها) وقد صدق، ولكن الجهل بتفسيرها لا يمنع من محاولة معرفة مقاصدها ومقاصد الجهل بها، وفي القرآن مصطلحات تواضع عليها العرب بمعنى، وأعطى لها القرآن معانٍ خاصة لأحكام خاصة، فيجيء إليها المقاصدي المصلح فيستشف منها الأسرار والفوائد مستعيناً بما دعماً لقضيته النبيلة المتمثلة في بثّ الروح من جديد في العبادات والأحكام التي بقيت أفعالها عند الناس وفارقتها أرواحها.

ففي معرض بيان مشروعية الحرب في الإسلام يقول -رحمه الله-: «وما قر في نفوس البشر أن بعض الشرور لا تدفع بالخير ولا تنقصم إلّا بشر آخر. وإذا كانت الأحكام على الأشياء إنما هي بعواقبها وآثارها فإن الشر الذي يدفع شرّاً أعظم منه يكون خيراً كقطع بعض الأعضاء لإصلاح بقية البدن، وقتل الثلث لإصلاح الثلثين كما يؤثر عن الإمام مالك، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 2/ 350.

اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» [الحج: 39، 40]. ففي قوله تعالى: «يُقَاتِلُونَ» وفي قوله: «بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا» وفي قوله: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ» بيان للشروط المسوغة للحرب في الإسلام تحمل عليها نظائرها في كل زمان، شرعت الحرب في الإسلام أي أذن فيها بدستور كامل للحدود التي تربطها وتحدد أولها وآخرها، وتخفف من ضرورها، وتكبح النفوس على الاندفاع فيها إلى الخروج عن الاعتدال وتعدي الحدود»⁽¹⁾.

فقد أعطى للحرب بعدا مقاصدياً في الإسلام للتفرقة بينها وبين الحروب في غير الإسلام؛ اختلاف في الأسباب والدوافع والأهداف والأسلوب، وأن الحرب هي وسيلة وليست غاية لذاتها.

الخاتمة:

وأخيراً ومن خلال ما سبق بيانه فإنني أخلص إلى ذكر هذه النتائج التي استطعت رصدها، وهي كما يلي:
أولاً: التفسير الإصلاحي هو حركة تجديدية في التفسير ظهرت بوادرها بظهور الاستدمار الغربي وكردة فعل حتمية للانحطاط الذي أصيب به العالم الإسلامي في مختلف الميادين والمجالات التي من أهمها بُعد المسلمين عن كتابهم وابتغاؤهم الحلول في غيره.

ثانياً: من سيما التفسير الإصلاحي اعتماده على الإملاء والشفاهة، وهي خاصية تقتضيها طبيعة الإصلاح كون المصلح يواجه المتلقين ويخاطبهم بشكل مباشر ويعالج قضايا المجتمع بحلول قرآنية.

ثالثاً: التفسير الإصلاحي عند الإمام الإبراهيمي ليس انقلاباً على كل ما هو قديم، ولكنه محاولة لبعث الروح والفاعلية في التفسير وربطه بالواقع المعاش واستعمال التفسير أداة إصلاح لما أفسده الدهر، فالتفسير الإصلاحي إنما استمداده من الينابيع الأصلية المتمثلة في الكتاب والسنة والمعتبر من تفسير السابقين ومن قواعد اللغة العربية وعهدها وأساليبها.

رابعاً: أسماء السور ومناسبة بعضها لبعض، وكذا التناسب بين الآيات، وربط أوائل السور بخواتمها، والدلالات التي يفيدها السياق أدوات تفسيرية اعتنى بها الإمام اهتماماً بالغاً، وذلك من أجل إدراك الأبعاد المقاصدية التي تكتنفها السورة.

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 5/ 93.

خامساً: الإعجاز القرآني، واللطائف القرآنية وسائل وأدوات إقناع مهمّة عند الإمام الإبراهيمي يدعم بها تفسيره وقضيته الإصلاحية.

سادساً: الاعتناء بجوامع الآي من ميزات التفسير عند الإمام لما لها من الفوائد الجمّة في العبارة القصيرة، ولما تكتسبه من خاصيّة الإقناع والإعجاز، وما لها من أثر ووقع في نفوس المتلقّين.

سابعاً: لم يغفل الإمام الإبراهيمي جانب المقاصد في التفسير، فالتنقيب عن الأسرار ومحاولة الكشف عنها يعتبر من أساسيات التفسير عنده.

هذا ما استطعت جمعه من معالم في هذه الدراسة، التي أسأل الله تعالى أن تكون نافعة شافعة وشفافية، فإن أصبت فبتوفيق الله وكرمه، وإن كانت الأخرى فأسأل الله مغفرته ولطفه، والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. الإيتقان في علوم القرآن، السيوطي جلال الدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م.
2. آثار البشير الإبراهيمي، الإبراهيمي محمد بن بشير بن عمر ، جمع وتقدم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.
3. أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1490هـ/ 1980م.
4. الاعتصام، للشاطبي موافق للمطبوع، الشاطبي أبو إسحاق ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
5. البرهان في علوم القرآن، الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 ، 1376هـ- 1957م، دار إحياء الكتب العربية.
6. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
7. الجامع الصحيح سنن الترمذي، الترمذي محمد بن عيسى، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
8. جريدة «البصائر»، العدد 180، 25 أوت 1939.
9. الجامع الصحيح، البخاري محمد بن إسماعيل، دار الشعب، القاهرة، ط1، 1407هـ، 1987م.
10. السنن الإلهية في الامم والأفراد والجماعات، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط1، 1413هـ، 1993م.
11. مجلة المنهل، محرم 1372هـ / أكتوبر 1952م، جدة.
12. المعجم المفصل في اللغة العربية، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ - 1996م.
13. الموافقات، الشاطبي إبراهيم بن موسى ، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط:1، 1417هـ/ 1997م.



